

المعلقات

رأى جديد فيها

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

اختلف علماءنا قديماً وحديثاً في سبب تسمية تلك القصائد التي جمعها حماد الراوية باسم المعلقات ، وكان حماد أول من جمعها في أواخر عصر بني أمية وأوائل عصر بني العباس ، وذلك أنه رأى زهد الناس في الشعر فجمع لهم هذه القصائد السبع وقال هذه هي المشهورات ، فسميت القصائد المشهورة ، ويراد بالشعر الذي زهد الناس على عهد حماد فيه الشعر الجاهلي القديم ، وإلا فإن سوق الشعر كانت رأجة في عهد حماد ، وكان الشعراء المحدثون في ذلك العهد لا يحصون من كثرة ، وقد ابتدأوا يخرجون على الشعر القديم ويهدون فيه ويهجرون مذاهبه وأساليبه ، وكان أول من فعل ذلك بشار بن برد الذي يعد في رأس الشعراء المحدثين ، وكان من أصدقاء حماد المقربين ، فدعا هذا حماداً إلى محاولة إحياء ذلك الشعر المهجور ، وترغيب الناس في حفظه وروايته ، فجمع هذه القصائد لهم ، ولعلها كانت أول ما جمع من هذا الشعر

ويؤخذ من نص الرواية السابقة في جمع حماد لها أنها لم تكن قبل جمعه لها تعرف بهذا الاسم « المعلقات » وأنها كانت تسمى عقب جمعه لها القصائد المشهورة ، أخذاً من قوله بعد انتهائه من جمعها « هذه هي المشهورات » ولو كانت تسمى قبل جمعه لها باسم المعلقات لقال بدل هذا بعد انتهائه من جمعها « هذه هي المعلقات » فسمها باسمها المعروف ، ولم يعدل عنه إلى ما ذكره في تمييزها ، فعدوله

وقام بنصرته بقلبه ولسانه ، حتى اضطر الانكليز أن يسيروا وراءه عيناً يخبرهم بحركاته وسكناته ، وكاد يقع فيما لا تحمد عقباه لولا أن سلمه الله

ولداومة اشتغاله بالاقراء وتربية النفوس لم يؤلف تأليفاً ، غير أن نظارة المعارف لما كلفت كل مدرس بجمع ما يلقيه من الدروس ، وكان يدرس التفسير بمدرسة دار العلوم ، شرع في جمع ذلك في كتاب سماه « عنوان البيان » لم يطبع منه غير المقدمة سنة ١٣١٦ ، أي قبل وفاته بسنة .

أحمد نيمور

إلى ذلك دليل على أنها لم تكن تعرف باسم المعلقات ، بل إن عنايته بجمعها وما عمله في ذلك من أقوى الأدلة على أنها لم تكن تعرف بهذا الاسم ، لأنها لو كانت تعرف قبل حماد به لكان لها اسم يجمعها ، وكانت مجموعة بالفعل فيه ، ولم يكن هناك من حاجة إلى جمع حماد لها ، فإذا أردنا أن نعرف كيف حدث هذا الاسم « المعلقات » لها

بعد جمعها ، فلننظر ماجرى للناس معها بعد جمع حماد لها ، فلقد أخذوا يعنون بحفظها وشرحها ، ثم شغفوا بذلك الحفظ والشرح واتخذوها متناً شعرياً مثل المتون التي دونت في العلوم بعد جمعها ، وشغف الناس بحفظها وتعليق الشروح عليها ، ولكن هذه القصائد كانت أسبق جمعاً من هذه المتون ، حتى أتى عليها زمن وهي منفردة بعناية الناس بتعليقها حفظاً وشرحاً ، فشاع لها بين الناس هذا الاسم الجديد « المعلقات » ونسوا به اسمها القديم « القصائد المشهورة » ثم مضوا على ذلك إلى أن جاء من العلماء من عني بفهم هذا الاسم الجديد لها ، ومعرفة سر إطلاقه عليها ، ففرض له تلك الفروض الخاطئة التي سنبين فيما بعد خطأها

ولاشك أن اللغة تسوغ اشتقاق هذا الاسم « المعلقات » لتلك القصائد مما عني به الناس بعد جمعها من حفظها وشرحها ، فإن الحفظ تعليق لما يحفظ بمحل حفظه ، والشرح تعليق على ما يكون هو شرحاً له ، ولا تزال الشروح التي توضع على المتون ونحوها تسمى شروحاً وتعليقات ، وقد جاء في القاموس والأساس أنه يقال فلان علق علم أي يحبه ويتبعه ، وعلق شر كذلك ، فهذه المعلقات معلقات مما حدث للناس بعد جمعها من حبهم لها ، وتتبعهم إياها بما كانوا يتبعونها به من حفظها وشرحها ، وهي معلقات بمعنى محفوظات أو مشروحات ، وقد خصت بهذا الاسم لأنها كانت أول ما عني بجمعه وتدوينه وحفظه وشرحه من الشعر

فهذا إن لم يكن هو الذي وقع في حدوث هذا الاسم « المعلقات » لتلك القصائد بعد جمعها ، فهو فرض قريب يرتاح إليه العقل في بيان وجه تسميتها بذلك ، وهذا شأن كل الفروض العلمية التي يراد منها تقريب فهم بعض المسائل العلمية من العقول ، إذ تستعصى عليها ، ولا يمكنها بيقين معرفة سرها ، وهو خير من تلك الأمور الخاطئة التي يذكرها من يذهب إلى أن تلك القصائد كانت تسمى قبل جمعها باسم المعلقات ، ولا يذكرها على أنها

لنا هذه ، وأثبتوها في خزائني ، وأما قول من قال إنها علفت بالكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة »

ولم يذكر أبو جعفر من هو هذا الملك الذي كان يأمر بتعليق هذه القصائد في خزائنه ، وقد رجح بعضهم أنه النعمان بن المنذر لأنه هو الذي كان يعني من ملوك المناذرة بجمع أشعار العرب ، وكان عنده ديوان مكتوب جمع فيه أشعار الفحول ، وقد صار ذلك الديوان أو ما بقي منه إلى بني مروان على مارواه أبو عبد الله محمد بن سلام الجحفي في كتابه طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين ويستند أبو جعفر في رأيه هذا على ما قيل إلى أن حماداً الراوية

لما رأى زهد الناس في الشعر جمع لهم هذه القصائد السبع ، وقال هذه هي المشهورات فسميت القصائد المشهورة ، ويؤخذ من ذلك كله أن تسميتها بالمعلقات عند أبي جعفر يرجع إلى قول الملك علقوا لنا هذه ، لا إلى أنها علفت في الكعبة ، ولست أدري على أي شيء يستند أبو جعفر فيما ذكر عن حماد في جمع هذه القصائد ، وهو كما قلنا ينقض تسميتها بالمعلقات قبل جمعه لها ، سواء أكان ذلك للوجه الذي ذكره أم كان للوجه الذي ذكره غيره

ولاشك أن عصر النعمان بن المنذر أحدث من عصر كثير من أصحاب المعلقات ، مثل امرئ القيس وطرفة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة ، فلا يصح أن يكون هو الذي كان يعلق قصائدهم بخزائنه ، بعد إنشادهم لها بسوق عكاظ ، واستحسانه إنشادها ، بل إن سوق عكاظ ، ويكادون يجمعون على أن تلك القصائد كان ينشدها أصحابها فيه ، أحدث بكثير من عهد هؤلاء الذين ذكرناهم من أصحاب المعلقات ، فقد أقيمت تلك السوق بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة ، وهو العام الذي ولد فيه النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم بقيت إلى ما بعد الإسلام حتى سنة تسع وعشرين ومائة ، وفي عهد إنشائها كان جيل امرئ القيس وطرفة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة قد انقرض ، أو كاد ينقرض ، وأنا نستطيع أن نجزم بأن هذه القصائد السبع لم تقل في سوق عكاظ ، ولا في غيره من الأسواق العربية التي كانت معاصرة له ، وقد ذكروا لها أسباباً معروفة قيلت من أجلها ، وأمكنة غير سوق عكاظ أنشئت فيها ، وذكروا لبعضها ملوكاً غير النعمان قيلت أمامه ، ولسنا في حاجة إلى تفصيل هذا كله لشهرته

فروض يهون الخاطئون فيها ، بل على أنها أمور وقعت وكانت سبباً في تلك التسمية

قالوا إن الشعراء في الجاهلية كانوا يقصدون أسواق العرب التي كانوا يقيمونها كل سنة بجوار مكة فيتناشدون الأشعار ، وكان ينصب للشاعر فيها ربوة فيصعد إليها ، ويحرق به العيون ، وتشرئب إليه الأعناق ، فينشد قريضه عليهم حتى يأتي على آخره ، فلا يقاطعه أحد ولا يستوقفه ، فإذا ما أحكم القول ، وبلغ من الفصاحة ما وقع اتفاقهم على حسنه وإجاده كتبوه بحروف الذهب على نفيس الديباج وعلقوه على الكعبة المشرفة ، تنويهاً بشأن صاحبه ، وتحليداً لذكره

وممن قال بهذا أو نحوه في سبب تسمية تلك القصائد بالمعلقات أحمد بن عبد ربه القرطبي صاحب العقد الفريد ، وابن خلدون ، وابن رشيق . قال ابن عبد ربه : « وقد بلغ من كلف العرب بالشعر وتفضيلها له أن عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم ، فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة ، وعلقها بأستار الكعبة فمنه يقال مذهب امرئ القيس ، ومذهب زهير ، والمذاهب سبع يقال لها المعلقات »

وقال ابن خلدون بعد كلام له في ذلك « حتى انتهوا إلى المباهاة في تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام ، موضع حجهم ، وبيت أبيهم إبراهيم كما فعل امرؤ القيس ، وطرفة بن العبد ، وعلقمة بن عبدة ، والأعشى ، وغيرهم من أصحاب المعلقات السبع »

وقال ابن رشيق « وكانت المعلقات تسمى المذاهب ، وذلك أنها اختيرت من سائر الشعر القديم ، فكتبت في القباطي بماء الذهب ، وعلقت على الكعبة ، فلذلك يقال مذهب فلان إذا كانت أجود شعره ، ذكر ذلك غير واحد من العلماء »

وكان أبو جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ هـ يخالف صاحب العقد ومن تابعه على هذا المذهب في علة تلك التسمية ، وكان أبو جعفر معاصراً لابن عبد ربه وهو من علماء المشرق ، أما ابن عبد ربه فمن علماء الأندلس والمغرب ، وقد ساج في بلاد المشرق وسمع من علمائه ، ثم رجع إلى بلاده

وقد قال أبو جعفر في هذا من شرحه على تلك المعلقات « واختلفوا في جمع القصائد السبع ، وقيل إن العرب كانوا يجتمعون بعكاظ فيتناشدون الأشعار ، فإذا استحسنت الملك قصيدة قال علقوا